المحاضرة الثانية: مفهوم الشعر عند النقاد العرب القدماء

مقدمة:

الشعر من أقدم الفنون الأدبية التي عرفها الإنسان، وحاول أن يعبر من خلاله عن تجاربه وأحاسيسه ومشاعره نحو كل ما يحيط به. وهو أحد الفنون الجميلة الخمسة، وهي: الرسم، والرقص، والموسيقى، والنحت، والشعر .

ولقد اهتم العرب بهذا الضرب من الكلام، فحفظوه وتناقلوه ورووه جيلاً بعد جيل، لأنهم فتنوا بما تميز به من نفاذ إلى حقائق الأشياء، وقدرته على التصوير والتعبير عن أسرار النفس والكون، وما يفيض به من حِكَم وأمثال وفوائد. بعد ذلك اتجه العرب إلى تدوين هذا الشعر، فاكتشفوا أن فيه نوعاً من الوزن فحاولوا ضبطه وتحديده، وسموا ما استقام على هذه الموازين شعراً، وما لم يستقم عليها سموه سجعاً أو مثالاً. ومن هنا أصبحت العرب تميز بين هذا الفن وغيره من الفنون، وحاول النقاد العرب أن يضعوا له حدّاً وتعريفاً يميزه عن غيره من أصناف الكلام.

1. مفهوم الشعر عند الجاحظ:

ألمّ الجاحظ بفكرة الشعر وماهيته حين تحدث عن أشعار المولدين، واستحسان أبي عمرو الشيباني بيتين من الشعر، حيث قال:" المعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرَوي والمدنيّ وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن وتخيُّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحَّة الطبع وجَودَة السَّبك فإنما الشعر صناعةٌ وضَرْب من النَّسج وجنسٌ من التَّصوير" .

إن المتأمل لهذا النص يجده يؤسس للقوانين التي تصنع جمالية العمل الأدبي من منطلق الصياغة الأسلوبية والتصوير البياني، والمتمثلة في:

-جعل" الجاحظ "القوانين التي أوردها والأفكار التي بينها خاصة بالشعر، وهذا وعي مبكر بالمسألة الأجناسية، إذ لكل نمط من الإبداع قوانين خاصة تحكمه.

-إقامة الوزن العروضي الذي يعطي للشعر قوامه البنائي ويجعله يندرج ضمن جنس أدبي بعينه له قوانينه المنظمة وآلياته الضابطة.

-تخير اللفظ، مما يحقق للألفاظ تداوليتها ويبعدها عن الغريب وغير المستعمل.

-سهولة المخرج :وهو القانون الذي يحقق متطلبات الفصاحة، ويبعد الألفاظ عن التعقيد وبذلك يسري الشعر على ألسنة الشعراء دون لبس في النطق، ويتسلل إلى المتلقي دون نشاز.

-صحة الطبع :قانون يتعلق بطبيعة الشاعر وأنه قبل أن يكون صناعة تتعلم فإنه طبع مركوز في النفس يجعل الإنسان ينطق شعرا كلما اعتراه شعور.

-جودة السبك :أي حسن الصياغة الأسلوبية، التي تستوجب امتلاك ناصية اللغة نحوا وبلاغة.

-الجانب التصويري :الذي ينقل الكلام من دائرة النثر إلى دائرة الشعر، بما يجب أن يحضر فيه من خيال.

-إن كثرة الماء يكاد يكون دالا على القيم الجمالية التي تصنع شعرية القصيدة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجاحظ قد أولى أهمية قصوى للوز،ن فهو خصيصة يتفرد الشعر بها، وقد عدّها الجانب المعجز في الشعر، وذلك في قوله "وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب وعلى من تكلَّم بلسان العرب. والشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب لا كالكلام المنثور[...] وقد

نُقِلَتْ كتبُ الهند وتُرجمتْ حكم اليونانيّة وحُوِّلت آدابُ الفرس فبعضها ازدادَ حُسناً وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن".

ابن طباطبا وعيار الشعر:

يعرف ابن طباطبا الشعر في كتابه "عيار الشعر" بقوله: "الشعر –أسعدك الله– كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجّته الأسماع، وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه".

يقصد ابن طباطبا بالنظم هنا الوزن، ويلحظه الطبع السليم والذوق المدرب. لكن من افتقد الطبع السليم احتاج إلى تعلم العروض، حتى يصير علمه به كالطبع.

إن أهم ما في هذا التعريف أنه يحدد الشعر على أساس الانتظام الخارجي للكلمات، كما أنه لا يشير صراحة إلى القافية إلا أنها متضمنة فيه. والتعريف فضلاً عن ذلك لا يهتم بالجانب التخييلي من الشعر، من حيث مصدره أو تأثيره، وإنما يهتم بالشعر في ذاته باعتباره بنية لغوية منتظمة على أساس من الطبع والذوق.

حد الشعر عند قدامة بن جعفر :

أول خطوة خطاها قدامة هو حدّ الشعر حدّاً مميزاً له عما ليس بشعر. فالشعر عنده: "كلام موزون مقفى، يدل على معنى". وفي تعريف قدامة بأن الشعر (قول): أي أنه جنس، و(موزون) فصل له عما ليس بموزون، و(مقفى) فصل عما هو موزون ولا قوافي له، و(دال على معنى) فصل له عما يكون موزوناً مقفى ولا يدل على معنى.

لم يضف قدامة إلى حد الشعر جديداً، ولكن الجديد الذي أتى به – وهو تحديد شكلي– يكمن في الجمع بين مكونات الشعر في مكان واحد، وإدراجها تحت عبارة واحدة وهي (حدّ الشعر). وقد أغفل في حدّ الشعر عناصر جوهرية كالخيال والعاطفة. ومهما يكن من أمر فإن حدّ قدامة للشّعر قد غلب على طوائف النقاد من بعده حتى ابن خلدون . اطمأن النقاد العرب بعد قدامة إلى تمييز الشعر من سائر الكلام بالنظم. والنظم اسم جامع للوزن والقافية، ويمثل حركة الإيقاع. وهو أعظم أركان الشعر وأولاها به خصوصية.

عمدة الشعر عند ابن رشيق القيرواني:

يبدأ ابن رشيق القيرواني كتابه «العمدة» بباب في فضل الشعر، بعد أن قسم كلام العرب إلى نوعين: منظوم ومنثور، ثم يبدأ المفاضلة بينهما. ويظهر جلياً أنه من أنصار الشعر.

يقول: "كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه، سموه شعراً. لأنهم قد شعروا به – أي فطنوا".

وقد وضّح في باب آخر حدّ الشعر وبنيته، فقال: "الشعر يقوم من بعد النية من أربعة أشياء وهي: اللفظ والمعنى والوزن والقافية؛ فهذا هو حدُّ الشعر لأن من الكلام موزوناً مقفّى، وليس بشعر، لعدم القصد والنيّة، كأشياء اتزنت من القرآن ومن كلام النبي ﷺ، وغير ذلك مما لم يطلق عليه بأنه شعر"

نلاحظ مما سبق أن ابن رشيق قد اتفق مع قدامة بن جعفر في وضع حدّ للشعر، وهو: اللفظ، والوزن، والقافية، والمعنى .وقد أضاف ابن رشيق إلى ذلك شرط النية، وذلك بأن يقصد الشاعر بكلامه هذا قول الشعر وقصده.ثم نراه يقسم الشعر إلى أربعة أقسام، هي: المدح والهجاء والنسيب والرثاء، ويذكر آراء العلماء في تقسيم أغراض الشعر. فمنهم من قسمه إلى: الرغبة والرهبة والطرب والغضب.

تكامل المفهوم عند حازم القرطاجنّي:

يقول حازم في تعريف الشعر: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه؛ لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب؛ فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها".

وأول ما يميز هذا التعريف أنه يذكرنا بتعريف قدامة بن جعفر للشعر، في مطلع القرن الرابع الهجري. فحازم لم ينف أن الشعر كلام موزون مقفى، ولكنه وقف من هذا التعريف عند ناحية التأثير، أي فعل الشعر في التحبيب والتنفير، وذلك لأن الشعر يعتمد على عناصر تكفل له هذه القدرة منها: حسن التخييل أو المحاكاة أو الصدق أو الإغراب.

يستفاد من هذا التعريف أن قصد الشاعر الذي يدفعه إلى إنشاء الشعر إنما هو إحداث انفعال في نفس المتلقي، يحبب إليها شيئاً أو يكره إليها شيئاً. ويترتب على كلٍّ من التحبب والتكريه تصرف خاص من جانب المتلقي؛ إما طلب الشيء أو الهرب منه.

فالشاعر عند التهيؤ للإبداع يكون لديه قصد :إما أن يجعل نفس المتلقي تحب الشيء فيحملها بذلك على طلبه، أو إلى أن يجعلها تكره الشيء فيحملها بذلك على الهرب منه. والسلطان الذي يستبد بنفس المتلقي فيجعلها تحب أو تكره يسمى التخييل.

يقول حازم: "والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيِّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها، انفعالاً من غير رويّة إلى جهة الانبساط أو الانقباض."

وختاماً، نقول: إن النقاد العرب القدماء عندما حاولوا أن يضعوا تعريفاً للشعر يميزه عن باقي أنواع الفنون الأدبية، لم يختلفوا في أنه: كلام موزون مقفى يتضمن معنى. فقد اتفقوا جميعاً على أن من خصائص الشعر الذي لا يكون شعراً بغيرها، هي الوزن مقروناً بقافية.